

خواطر حول الشعر

في جيل سابق جاء شاعر قليل الحظ من الشاعرية قريب الحظ من العلم والفكر واسالييهما في السير والتفسير والتقسيم فقال لنا، في قالب هو الى النظم أقرب منه الى الشعر :

الشعراء في الزمان (١) اربعة .
فشاعر يجري ولا يجري معه .
وشاعر يخوض كل معمعة
وشاعر لا تنتهي ان تسمعه .
وشاعر لا تستحي ان تصفحه .

وهذه الخلاصة المركزة على تحديد طبقات الشعراء حسب رأي هذا الشاعر أو الناظم، نلت على أن صاحبها محظوظ، اذ لقي رأيه صدق عند سائر قرائه، وراج قوله في الناس أي رواج، وكان بخوري مجرى الامثال بين سائر المتأدبين .

ومهما يكن في هذا القول من الواقعية وطرافة العرض - ولعل هذين أهم اسباب سيرورته وكثرة الاستشهاد به - فاني اعلن تعجبي من عده الطبقتين الاخيرتين من الشعراء ، فلمست انرى بأي وجه نسمي شاعرا ذلك الذي يقول ما لا ينتهي ان نسمعه ، وأحرى ذلك الذي لا نستحي ان نسمعه ؟ ان هذين لبعيدان عن الشاعرية بعد ما بين السماء والارض .

لشئان - مثلاً - بين رجل كالبحتري في فحولته الشعرية التي حملت على القول عنه : انه « اراد ان يشعر ففنى » وجعلت شاعرا كالمنتبى - وهو من هو في مكانته الشعرية واللغوية - يعترف له بالشاعرية المطلقة حيث يقول « انا وابو تمام حكيما والشاعر البحتري » .. وبين شاعر آخر قد يكون التزم عمود الشعر مثله - وربما قبله - بخطئه التوفيق في بعض ما ينشئه من شعر لا يبلغ - احيانا - حد النظم .

يقول البحتري في مطلع قصيدته « موكب عيد الفطر » .. وفي هذا المطلع - كما كانت عادة القدامى - لمحة غزلية بارعة :

اخفي هوى لك في الضلوع وأظهر
واراك خنت على النوى من لم يخن
وطلبت منك مودة لم اعطها
هل دين ، علوة ، يستطاع فيقتضي
بوضاء يعطيك القضيبي قوامها
تمشي فتحكم في القلوب بذلها
اني، وان جانبك بعض بطانتني
ليشوقني سحر العيون المجتلي

والام في كمد عليك ... وأعذر
عهد الهوى، وهجرت من لا يهجر
ان المعنى طالب لا يظفر
ام ظلم ، علوة ، يستطيق فيقصر
ويريك عينها الغزال الاحور
وتميم في ظل الشباب، وتخطر
وتوهم الواشون اني مقصر
ويروقي ورد الخدود الاحمر !...

فأين هذا - على ما فيه من نزعة غنائية تجعله لا يهم أحد سوى الشاعر ومن تشبه ظروفه ظروفه من مثل قول شاعر آخر، وإن كان في الأصل من المعروفين بالاجادة .

ربابة ربة الببيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فهذا الشعر وإن قيل أنه محمول على الارتجال للمداعبة والملاطفة، ضعيف بادي الضعف، بالقياس على سابقه .

والملاحظ أن هذا التفاوت بين شعر وشعر لا يحصل حتماً بين شاعرين أو عصريين أو ثياريين أو مذهبين شعريين، بل إن الشاعر الواجد يتراوح إنتاجه بين الجودة واللاجودة والرداءة أحياناً، إذ من الشعراء من يجيدون في فن من فنون الشعر، أو مطلب من مطالبه ولكنهم لا يجيدون القدرة على بلوغ درجة الاجادة في فن أو مطلب آخر .

ومنهم من يجيد في ظرف ولا يجيد في غيره، ومن ثم اشتهر ثلث من شعراء العرب في ظروف معينة « .. كفلان إذا شرب، وفلان إذا طرب » .

ومنهم من يحافظ على مستواه غالباً في الشكل، ولكنه يخفق في المحافظة على مستواه في المضمون وما يبتكره من المعاني المستطرفة التي يشق اليها موضوعه، ويعمر بها عناصره، ويغمر بها مختلف جوانبه .

وقد نجد - بعكس هذا - ولكن بقلة نادرة، وخصوصاً عند قماء الشعراء العرب - من يستطيع ابتكار المعاني وتوليدها، ويعيا عن ايجاد القوالب اللغظية التي يصوغها فيها، والاشكال الملائمة التي يقدم فيها تلك المضامين الطريفة المبتكرة .

وفي هذا المجال يجد اليون شاسعا بين جل شعرائنا العرب القدامى وجل شعرائنا المحدثين، وخصوصاً المعاصرين، وبين المحدثين والمعاصرين أنفسهم أخذ لك مثلاً هذا الموشح الوجداني الجميل لاحمد رامي :

يا نسيم الفجر ريان الندى
فرح الكون بلقياه غدا
فرح الكون وغنى
وأنا قلبي حثا
أهـة تـرى
تبصر الاحباب من بين الدموع
وترى بالظن أيام الربيع
يا نسيم الفجر
رغم الدوح، ورن الجداول
وبدا النور، فصاح البلبيل

ما الذي تحمل من أرض الحبيب ؟
والاسى غيمان في عين الغريب
كل الصف ينهـى
أرسل الشكوى وألـا
مقلـة شكـرى
زائـح منهم وغـاد
لغـيالـى وفـؤادى
نادىـا بالزهر
وسرت في الجو أنفاس العبير
داعيا للشو أسراب الطيور

في الغيوم

والنجوم

لبست منها نقاب

في الافق

والشفق

لونه ورد مذاب

كل ما في الكون بشر وهنا

وأنا ؟

أنا مازلت غريبا مفردا في ديار عزني فيها الحبيب
فيرح الكهون بلفياه غدا والامسى غيمان في عين الغريب

ان هذا الموشح مع ما فيه من صنعة واضحة تتجلى في مقابلة الالفاظ، ومقايسة بعضها ببعض، ومع ما قد يبدو فيه من تناقض معنوي، وخصوصا في فقرة الحديث عن النجوم التي تتبرقع بالغيوم وتلبس منها نقابا، بينما الموشح نهاري كما تدل جميع مقاطعة، وعنوانه : « نسيم الفجر » يبقى موشحا مصورا رائع التصوير في المجال « الرومانسي » فهو يتغنى بالطبيعة فيحمن التغني، ويتشوق الى الحبيبة أو الحبيب فيحمل قارئه على التشوق مثله الى أحبابهم، وربما أغراهم بالتشوق معه الى حبيبته أو حبيبه !.

وأين وقع هذا في نفوس الناس رغم تقيده بالاوزان والصناعة الشعرية، من وقع بعض اشعارنا المعاصرة التي تدعي التحرر من تلك القيود لتقوى على الاداء وتكون أقدر على التصوير والتأثير؟ ان وقع هذه في تصوري لضعيف . أو لنمثل لذلك بمقاطع من الشعر الحر في المجالين اللذين عالجهما رامي .

هذا « الحبيب الهلامي » في مقطع أول بعنوان : « بلاغ أخير الى سارقة القلب » ،
من قصيد أو ابداع عنوانه : « زغاريد الموت المسترسل » :

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

وربطت نمي بقصيدتك الأولى .

أرسلتهما لك كي لا ألفظ أنفاسي

فلماذا أغلقت الأبواب ؟

لماذا لم تلدينني خارج مشنقتي

يا آخر اجراسي ؟

ولماذا لم أولد مقتولا داخل أعراسي ؟

ويقول في مقطع اخر عنوانه : « كلمة الى صاحبة الجلالة : حبيبتي مستقبلا » :

تدخلين الآن في ذاكرة العمر

أنا أدخليتي حين تكون امواة داخله

كالرمح في

أخرجي من خارجي وأقسميني داخلها

عبري عني وشديني الى :

شرديني في عروقي

ادخليني ورده أو خنجرها

قبلة أو طعنة

لا تخرجي مني وكوني، وان شئت (2) .

وهذا شاعر آخر يقول لنا في المقطع الختامي من قصيدة له بعنوان : « شفة تعاكس حلمها » !

الريح تدخلني وتمسح عن وجوه الاغنيات
قلقا يواجه لحظة الاشرار .
ما بالها ارتجلت بنا ؟
في عمق سيدة تواصل رعدة الالوان في أرض
تغادر لونها
وتمد روح البحر
للرجل المسج بالفراق
فأحت
ولما استأنست بالنخل
بككت في كف نرجسة لها
شفة تعاكس حلمها
لا
لا
تضني

هذا ما قاله « جمال الدين حشاد » في تلك القصيدة .⁽³⁾ ومثله كثير وجله لا يبلغ مبلغ بيت أو قطعة من الشعر العربي الاصيل . وإن حاول أن يلتمس من الموضوعات الحية التي يعالجها مؤثرات وعوامل لغزو النفوس، وسمي ذلك أحيانا « التزاما » ، كان السابقين أو المعاصرين من ملتزمي عمود الشعر - لم يلتزموا الموضوعات التي تهتم الناس في حياتهم، وتصور واقعهم، وتحاول معهم تجاوزها إلى الأفضل . أو كأنها لم تثر مثلما تثار هؤلاء - ادعاء ! - على الأوضاع الاجتماعية أو الأدبية في الشكل والمضمون . وهل كانت الموشحات وما يجري مجراها الا خروجا عن المألوف ؟ وهل كانت مجزوات الأوزان الا ضربا من ذلك ؟

لو عقدنا مقارنة في الالتزام والثورة، في تغيير المضامين والأشكال الشعرية ... في معالجة القضايا الإنسانية والقومية والوطنية بالصيغ التقليدية وغيرها لجاز أن ننتهي من المقارنة بالحكم للقضاء على المحدثين، وللمعويدين على المتحررين والمنحليين .

فعلى الرغم مما سجلته العصور من تقدم في العلوم والمعارف وتطور ملحوظ في دنيا الفنون والآداب والثقافات، حتى يبدو - أحيانا - أن المقارنة بين المحدثين والقضاء لا مجال لها، أو هو مجال محدود للغاية يغلب أننا لو عقدنا مقارنة بين قمة من قمم شعراء العصر

ممثلا فيهم عبد أمير شعرائه : « أحمد شوقي » ، وقمة من قمم الشعراء السابقين ممثلا في « أبي الطيب المتنبي » ، لا فضت بنا المقارنة إلى الحكم بتفوق المتنبي . لا لمسبقة زمنيا فقط، عملا يقول الشاعر : « ... فقلت الفضل للمتقدم » ، بل خصوصا لأن المتنبي استطاع أن يثبت أمام النقد رغم ما كشفت عنه الأجيال المتعاقبة - عبر أكثر من ألف عام - من سقطاته وسرقاته ونقاط ضعفه، وما تعرض له شعره من نقد ونخل، في حين أن شوقي - على جلالته وقدرته، وارضائه لأنواق معاصريه .

وتجاوبهم معه، وبالأخص فيما عالجه من فنون لم يسبق إليها في العربية، كالرواية الشعرية، وقصص الأطفال لم يثبت الثبات اللازم أمام حملات الناقدين أمثال العمالق عباس محمود العقاد، ومدرسة الديوان... ولا ندري إذا كانت آثاره ستثبت أمام نقد الأجيال القريبة الوافدة، فكيف إذا امتدت عليه وعليها القرون مثلما امتدت على المتنبي!!

★

★

★

يتبين مما أسلفناه من خواطر وقضايا أن الشعر ليس سهل المنال، لا في انشائه الذي أصبح يسمى خلقا... ولا خلق في الواقع ولا ابداع.. ولا هو سهل في نقده، ولا سهل في ثباته وبقائه وخلوده.

إن الشعر الحق صعب المنال في محتواه وشكله... في روحه ومعناه، وفي صياغته وطريقة تصويره للمعاني. وقد عبّر عن هذه الصعوبة قنماء الشعراء والناقدين ومحتنوهم.

فحينما عالج القنماء قضية الشعر عبروا عن عسر انتاجه فضلا عن ابداعه، وقال قائلهم، في عفوية مستمدة من السليقة العربية، ومصنوية في قالب شعري محجب لبساطته نسيبا، وهو قالب الرجز:

الشعر صعب وطويل سلّمه
إذا ارتقى فيه الذي لأبطمه
زلت به إلى الخضمض قدّمه

http://Archivebeta.Sakhril.com

يريد أن يعرّبه... فيعجمه (4).

فكانت هذه النقطة المرتجة تعبيرا تحليليا لنظرة أولئك القنماء إلى الشعر، لم تلبث أن وجدت لها في الدارسين من زادها تحليلا وإيضاحا، وفي الناقدين أو مقنني النقد من وضعها بين أيدي الناس قواعد مركزة صالحة للتطبيق بتصريف.. في كل جيل عربي يؤثر الإصالة، ولا يمتنع عن التفتح.

وتلك النقطة المرتجة بما فيها من إيجاز، ليست الا خلاصة امينة لجانب من التصور العربي للشعر، ولدقة المعالجة الشعرية كما يراها العربي، وما قد تؤول إليه عند بعض ادعياء الشاعرية التي يرتضيها العربي.

تلك النقطة المرتجة نؤكد أن تكون نواة لما كتبه ابن سلام الجمحي، في طبقات فحول الشعراء، و قدامة ابن جعفر، في نقد الشعر، و ابن قتيبة، في الشعر والشعراء، و أبو هلال العسكري، في كتاب الصناعيتين، وصاحب كتاب عيار الشعر، ومواطننا ابن رشيق، في كتاب العمدة، في صناعة النقد... ومن عاصر هؤلاء أو بعضهم أو جاء بعدهم حتى عصرنا هذا ممن كتبوا عن الشعر والنقد الشعري

مثل الشاعرة « نازك الملائكة » ، وقبلها « ميخائيل نعيمة » ، في « الغربال » ، ويعنها أو معها ، الدكتور شوقي ضيف ، في دراسته القيمة : « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ... وغير هؤلاء كثير ، يتقدمهم في العصر الحديث « الدكتور طه حسين » ، في عدد من كتبه مثل « حديث الأربعاء » و « من حديث الشعر والنثر » ... ويسير في نهجه بعض مواطنينا مثل : « محمد الحليوي » ، في « مع الشابي » ، أو « في الأدب التونسي » ، و « محمد صالح الجابري » ، في « الشعر التونسي الحديث » .

وإذا كانت تلك الخلاصة الشعرية النواة قد أعطت للشعر العربي وجهته، وعبرت عن صعوبة انتاجه متى كان يراد له أن يكون شعرا بالمعنى الصحيح، و متمسكا في الوقت ذاته بالاصالة العربية والمعاصرة، غير مثبت عن جذوره ولا عن واقع حياته ... نون أن يضحي بالروح العربية ليقترب في شكله أو مضامونه من الروح الاعجمية ... فقد جاءت كل تلك المؤلفات وغيرها، وغيرها كثير جدا، لتقدم التماذج ، وتضع الايدي على الشعر الحق حتى لتكاد نلعمس لنمسا، ونذكر من خلاله من هم الشعراء الذين يدخلون في الطبقة الاولى التي عبر عنها شاعرنا الاول⁽⁵⁾ بقوله : « فشاعر يجري ولا يجري معه » ، والذين يدخلون في الطبقة او الطبقات الموالية لها، والتي لم يهمل الشعراء التعبير عن الرغبة في الالتحاق ببعضها، واتقاء ان يحسبوا من بعضها الآخر .

وأخص من عبروا من الشعراء عن هذه المعاني الانتمائية او التملصية كانوا من معاصرينا، ومنهم ثلة من مواطنينا .

فهذا شاعرنا المجيد « أحمد اللمفاني » يخاطب أستاذة الشاعر الفحل « الشيخ بلحسن ابن شعبان » الذي علمه السحر في الشعر ، فيقول له في اربعينيته متحدثا عن « الشعر » .

إليك أنشكو قلاء، يا أبا حسن فكن ظهيري .. أعني، واكفني الزللا
أريده طبعيا، سهلا كأنملتي تعنقوا فيه لي منقادة ذلك
وابتغيه سرياً في ملامته من المنا اتخذ المربال والحلا
أريده من شغاف القلب متفجرا قد من كبدي المصهور واتصلا
ابغيه شعرا كما علمتني، زكت تراثه ، وصفا وردا ومنتهلا
أبغيه رعدة أعصاب موقسة بين الجوانح .. لا مستغلا فعلا ، ..⁽⁶⁾

وهذا التعبير الجميل عن الشعر المرغوب فيه وعنه، لا يقل عنه اداء، وإن كان أقل حظا من الجودة والاتقان « علي بن صالح المقوشي »⁽⁷⁾ في خاتمة قصيد له :

.. لعب الازدال بالقصيد، وأفسدوا لغة الاوائل، واستكان المجمع (8)
ومعاشر الشعراء قد كثروا، وقد بدت الصحائف بالقصائد تزرع
فمجيدهم ندرت قصائده، ومن ملأ الجرائد بالقصائد ضيعوا
جمعوا الكلام وشوهوه ولكنة فجزأهم ... ودولأهم .. أن يصفوا !

وبهذه القطعة التي في نهايتها ، عود على بدء ، وربط لما أفضى اليه بحثنا من تحديد
لنوع الشعر المقبول، ورفض لما عداه، بما كان نقطة انطلاقنا من عرض لانتواع
الشعراء، واخرهم الشاعر الذي .. لا تستحي ان تصفحه ، نختم هذه الخواطر عن الشعر

وبما ان الصفع ... لا يصح ان يكون خاتمة فجنيز بنا ان نورد هنا قول الشاعر
المعاصر :
اذا الشعر لم يهزرك عند سماعه فليس جديرا ان يقال له الشعر (9)

أو قول غيره مفتخرا ناشدا الاجادة والانتقان :

ما لشعري وللقصائد ؟ اني قد كفيت الاشعار بالتجويد !
أنا ان قلت قلت بيتا ولكن بيت شعري بألف ألف قصيد (10)

البشير العربي

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

التعليقات :

- (1) - بروي : فاعلمن . عوض : في الزمان .
- (2) - عن مجلة ، شعر ، التونسية : عدد 1984/7
- (3) - عن مجلة ، الفكر ، : العدد 5 - السنة 30 : فيفري 1985
- (4) -
- (7) - هو : علي بن صالح بن محمد بن يحيى بن عبد الله المقرشي ، فهذا اسمه كما نشر مع قصيده في
جريدة ، الجزيرة ، السعودية ، بتاريخ 14 جمادى الأولى 1405 = 4 شباط (فيفري) 1985 .. تحت
عنوان ، ومعاشر الشعراء قد كثروا . .
- (8) - يعني ، مجمع للغة العربية ، وصمته عن مهازل تحريف اللغة والبحث بها .
- (9) - هذا البيت للشاعر العراقي المعاصر : جميل صدقي الزهاوي . .
- (10) - البيت لكاتب المقال .

أول الكلام

تمثل بين الجموع صبي
يريد الصعود كغيره جرياً
ولم يك يعلم وهو صغير
فما كاد ينو من الباب حتى
تھاوى على الأرض والهنسي
مددت اليه يدي في حنان
وقلت له يا صغيري حاذر
تباعد وهو يزول تراباً
وخلفني واقفا في مكاني

وكان الزحام شديداً عنيفاً
وقد صار للحافلات حريفاً
بأن القوي يدوس الضعيف
رمته المناكب رمياً كثيفاً
كما ورق يتهأوى خريفاً
وانهضت جسماً هزيراً نحيفاً
وقلت فلم ينتظر كي أضيف
بمنديله الكان قبل نظيفاً
أنوب انتظاراً وأغدو رصيفاً ...

شعر الهادي عبد الملك



اسرة المجلة حريصة على أن تتلقى ملاحظاتك واقتراحاتك
حول شكل ومضمون «الاتحاف» وستعمل جهدها كي تلبي
رغبتك .

منزلة العلم في الاسلام

الاسلام رسالة الالهية موجهة الى الانسان من أجل السموية حتى يستكمل انسانيته ويعرف منزلته الحقيقية في هذا الكون. ويدرك الجانب الحقيقي لعلاقاته بما ومن حوله من الكائنات عن طريق استثمار ما رُود به من الطاقات : الظاهرة منها والخفية، وعن طريق ما يملكه من الوسائل المادية والروحية لبلوغ الغاية الحقيقية من حياته وهي أن يكون في مستوى المنزلة التي شرفه بها خالقه حينما جعله خليفة له في الأرض، ومن هنا جاءت رعاية الاسلام متميزة بالشمول لكل المطالبات العادية منها والروحية فخاطبت في الانسان عقله وعملت على تحريره وخاطبت فيه وجدانه قصد تهذيب عواطفه والسمو بها كما خاطبت فيه جسمه واحساساته حتى تكون في مستوى النهوض بالوظائف الموكولة اليها .

كل هذا في سبيل بناء الشخصية المتوازنة وهو ما يعبر عنه علماء النفس بالشخصية السوية التي تتعادل داخلها مطالب العقل والروح مع مطالب الجسم وبذلك يتحقق الانسجام والتوافق وتتميز الشخصية الانسانية بالتوازن والاستقرار النسبي وتخلص من القلق والاضطراب .

من المعلوم ان التفوق الواضح الذي يتميز به الانسان على سائر الحيوانات من حيث الاستعدادات العقلية يجعله مسؤولاً عظمى، هي مسؤولية الوعي بالذات والوعي بما حوله من كائنات ثم بناء علاقات معها واتخاذ موقف ازاءها هو موقف الوعي المتعبرق في الفهم بصورة تجعله يسمو فوق هذا الكون ليتهي لنفسه علاقة تكون واعية هي الأخرى مع مبدع هذا الكون . وبذلك يدرك الانسان تلك المنزلة العالية فيصبح خليفة لله في الأرض . وتبدو الأهمية البالغة التي أولاها الاسلام لتحقيق هذه الغاية في أن توجيه أول خطاب من الله تعالى الى رسوله ﷺ كان يدعو الى العلم قبل أن يشرع أي نوع من العبادات الأخرى قال تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم » .⁽¹⁾

ثم ان ورود كلمة « الكتاب » في القرآن كان في الغالب مقرونا بكلمة « الحكمة » ذلك ان الكتاب اذا لم يقع تدبر متعانيه عن طريق العلم والبصيرة وملكة التأمل والتعقل في الدين لمعرفة أصوله والنفاذ الى بواطنه وفهماره فان الانسان بغير هذا يكون بعيدا عن الايمان بمدلوله الحقيقي كما اراده الاسلام .

يقول الله تعالى : « فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة ⁽²⁾ وقال تعالى : « ويعلم الكتاب والحكمة » ⁽³⁾ .

ولعل أقرب تحليل لتفسير حالات التدهور والتخلف التي تصيب المسلمين راجع الى أنهم احتفظوا بالكتاب كتراث واضاعوا الحكمة التي ترشدهم الى ما فيه من أسرار وتعمدهم بالقدرة على استنباط الحلول لمشاكلهم الحياتية . وفي هذه الحال يصدق عليهم القول بأنهم كمثل الحمار يحمل أسفارا .

ان غفلة الانسان عن تدبر آيات الله هي سر ضلاله وبعده من الطراط المستقيم . ومن هنا كان أهلا للتأنيب والتنبيه . قال تعالى : « ان شر الدواب عند الله الصم والبكم الذين لا يعقلون » . (4) ذلك أن الانسان قد زود بأدوات المعرفة ولكنه لم يستثمرها فنزل الى أدنى مستوى من الحيوانية . وقد وصفهم القرآن في قوله تعالى « أولئك كالأنعام . بل هم أضل أولئك هم الغافلون » . (5) ولعله من أبرز مظاهر هذه الغفلة ان تتحجر في الانسان مواهبه فيركن الى الكسل الذهني والتقليد الأعمى ، أو انه يتبع هواء وينتج موافقه على الظن والتخمين مما يحرمه من نشوة الايمان والتوازن الروحي المبدع والخلاق في أمن واطمئنان . ولهذا ألح القرآن في العديد من المناسبات على ضرورة التدبر والتفكير وربط كل ذلك بالحكمة قال تعالى : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليذبخوا آياته وليتذكر أولوا الالباب » . وقال تعالى : « قد فصلنا الآيات لقوم يفتقرون » . وقال تعالى : « من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » . (6) ويؤكد هذا المعنى أيضا في قوله عليه الصلاة والسلام : « أفضل الناس أفضلهم عملا إذا فقهوا دينهم » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر » .

ومن هنا احتل العلم كثرمة للمجهود الانساني مكانة بارزة في الاسلام حتى ان القرآن خص العلم والعلماء بالتمجيد في الكثير من المناسبات . قال تعالى : « يفصل الآيات لقوم يعلمون » . (7) وقال تعالى : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (8) وقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . (9) وقال تعالى : « يرفع الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . (10)

وكذلك وردت كثير من الآيات فيها تشريف للعاقلين والمتفكرين . قال تعالى : « يفصل الآيات لقوم يعقلون » . وفي آية أخرى : « لقوم يتفكرون » (11) وقد حرص القرآن على إعمال النظر واستعمال البصيرة . قال تعالى : « انظروا ماذا في السموات والارض » (12) وقال تعالى : « قل هذه سبيلي ، أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » .

وقد كان من الطبيعي أن نجد اثار هذا الموقف القرآني من العلم في السنة النبوية من ذلك مثلا قوله عليه الصلاة والسلام : « فضل العلم أحب الي من فضل العبادة » (13) ذلك لان العبادة تقوم على منفعة خاصة في حين أن العلم يقوم على منفعة عامة . ويزداد هذا المعنى تأكدا في قوله عليه الصلاة والسلام : « لان تغدو فتتعلم بابا من العلم خير لك من أن تصلي مائة ركعة » . (14)

ثم إن العلم مطلوب اشاعته، فهو ليس قاصرا على صاحبه فهو ملك للناس كافة ولا يدخل في باب الملكية الخاصة، حتى قال عليه الصلاة والسلام : « من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . » ثم انه لا يجوز ان يستغل العلم لغايات لا أخلاقية حتى قال عليه الصلاة والسلام : « من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس اليه، فهو في النار . » ثم ان نشر العلم ضروري لما فيه من النفع العام ولما فيه من الاستمرارية التي تجعل العلم لا ينقطع بموت صاحبه . قال عليه الصلاة والسلام : « انما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علم علمه ونشره . »

كما ربط النبي عليه الصلاة والسلام صلاح العلماء وصلاح رجال السلطة بصلاح المجتمع فقال : « صنفان من الناس اذا صلحا صلحت الامة واذا فسادا فسدت الامة : السلطان والعلماء . »

كما ان طلب العلم ليس خاصا بفئة معينة بل هو أمر اجباري موجه الى جميع المسلمين . قال عليه الصلاة والسلام . « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وفي رواية أخرى « على كل مسلمة » . ومن جهة أخرى فان طلب العلم ليس خاصا بفئة معينة من العمر بل هو يمتد ليشمل كامل عمر الانسان، وهذا واضح في قوله عليه الصلاة والسلام : « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد . » ثم ان طلب العلم وكما لا يتوقف على فئة معينة ولا يتقيد بسن معين، فهو كذلك لا يتقيد بحدود المكان حتى قال عليه الصلاة والسلام : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . ولهذا فليس غريبا ان يكون فضل الساعي في طلب العلم كفضل الساعي الى الجهاد في سبيل الله . حتى قال عليه الصلاة والسلام : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » . بل ان مداد العلماء افضل من دم الشهداء . قال عليه الصلاة والسلام : « يوتى بمداد طالب العلم، ودم الشهداء يوم القيامة، فيرجح مداد العلماء » .

ثم ان العالم والمتعلم شريكان في الاجر ولا خير في سائر الناس . ثم ان هناك بعدا اخر له أهمية خاصة وهو يتعلق بمصادر المعرفة، اذ ليس شرطا في الاسلام ان نستكشف عن طلب المعرفة من المخالفين في الدين والملة حتى قال عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها . » وقد أمر عليه الصلاة والسلام كاتبه زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية لتكون اداة للتخاطب مع اليهود حتى يأمن شرهم . ومن المواقف النبوية ازاء العلم والتعلم ما كان منه عليه الصلاة والسلام ازاء اسرى بدر من القرشيين الوثنيين اذ اكد حين وقعت فتيנתهم بتعليم الاميين من المسلمين . اذ فرض على بعض الاسرى من المتعلمين تعليم عشرة من المسلمين مقابل فكاكه من الاسر . ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الباب ان المسلمين كانوا في ذلك العهد في أشد الحاجة الى المال قبل حاجتهم الى العلم .

وقد كان من الطبيعي ان تظهر آثار هذه المواقف في حياة الامة الاسلامية حتى كان المسلمون كما قال فيهم : « قورسطاف لوبون » ان النشاط الذي أبداه العرب ، وهو يقصد المسلمين بوجه عام ، في الدراسة كان مذهشا جدا ... ثم يقول : « حتى انهم كانوا اذا فتحوا مدينة وجهوا عنايتهم في الدرجة الاولى الى تأسيس جامع واقامة مدرسة » ، ثم يواصل قائلا : « وبالإضافة الى مدارس التعليم البسيطة ، فان المدن الكبرى مثل بغداد والقاهرة ومطلمطة وقرطبة كان فيها جامعات علمية مجهزة بالمخابر والمراسد والمكتبات الفنية ، وبكلمة واحدة كانت هذه الجامعات مجهزة بكل المواد الضروري للبحوث العلمية وكان في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكانت مكتبة الخليفة الحكم الثاني وحدها في قرطبة تحتوي على ستمائة ألف مجلد وكان منها أربعة وأربعون مجلدا للفهرس فقط : في حين ان شارل الحكيم بعد مضي اربعمائة سنة من هذا التاريخ لم يتمكن من جمع اكثر من تسعمائة مجلد ثلثها في علم الكهنوت . » انتهى .

أفهل يصح بعد هذا ان يقال عن الاسلام بانه يقيد الفكر ويعوق معتقية عن التطور ؟ هل يمكن ان تجاري امثال رينان وتنعمان ودي كوزان في اعتبارهم ان الاسلام عدو للفكر وعدو للتقدم والتفتح ؟ مثال واحد مألوف عند جميع المسلمين نهض به لهؤلاء وأمثالهم من الذين نصبوا العداء للإسلام عن جهل أو تجاهل .

هذا المثال نستعده من موقف للرسول عليه الصلاة والسلام عند توليته لمعاذ بن جبل على بلاد اليمن حيث سأله : بم تقضي ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فان لم تجد ؟ قال اجتهد رأيي . فأقره على ذلك وقال : الحمد لله ان وفق رسول الله الى ما يحبه ويرضاه

ان هذا الاقرار لدور الرأي يمثل فتحا للباب على مصراعيه أمام العقل المسلم لكي لا يجهد امام أية قضية تحدث للناس ، حتى قال عمر بن عبد العزيز : « تحدث للناس أفضية بقدر ما أحدثوا من الفجور » . وليس خافيا هنا ان الحكم عام لكل قضايا الانسان . وفي هذا تأخ واضح بين العقل والايمن وهو عقد سلام بينهما لا يعرف الانفكاك . وما أجمل ما قاله حجة الاسلام أبو حامد الغزالي في هذا المجال : من ان « العقل كالاساس وان الدين كالبنا . فلا يستقيم بناء بدون اساس ولا معنى لاساس بدون بناء ... » ونقول معه في هذا المعنى : ما أجمل العقل حين يزينه الايمان وما أعمق الايمان حين يدعمه العقل .

ونحن اذا ما علمنا بأن المخور الأساسي الذي يقوم عليه العلم بالدرجة الاولى هو العقل أدركنا الى أي مدى كان ذلك التحول العميق في المجتمع الانساني الذي عرف الاسلام ودان به .

ومن هنا فإن المسلم مطالب بأن يرتفع فوق مستوى التقليد حتى يعيش النشوة الحقيقية للإيمان التي تتجاوز مجرد الانتماء الجغرافي وهكذا فنحن اليوم وأكثر من أي وقت مضى نشعر بألم الحاجة لأن نتجاوز اسلام الشعارات وأن نعيش بعمق إيمان الوعي والعمل .
 أن صميم الغفلة التي أودت بنا في هوة الغربة أساسه الجهل وتعطيل القوة العاقلة فينا الأمر الذي جعلنا نقف بكتاب الله عند حدود التبرك به والتلذذ بنغمات تلاوته دون أن نقوى على الفحص على ما فيه من ثروات هائلة احاطت بكل شيء علما .

إن إيماننا أساسه الجهل وخاصة في الطرف الذي يعيشه المسلم اليوم هو إيمان مهدد بالزوال وفي قضية الحال فإن الذي سيدفع الثمن هو الانسان نفسه وليس الاسلام لأن الله كتب على نفسه « انه متم نوره ولو كره المشركون » ولأن الله التزم بحفظه اذ قال تعالى وقوله الحق : « انا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون » . صدق الله العظيم .

- انتهى -

- عبد الكريم العراقي -

متفقد عام للتربية القومية

- تونس -



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrj.it>

- (1) - سورة العلق .
- (2) - سورة النساء الآية 54 .
- (3) - سورة آل عمران الآية 48 .
- (4) - سورة الانفال الآية 22 .
- (5) - سورة الاعراف - الآية 179 .
- (6) - سورة البقرة - الآية 269 .
- (7) - سورة يونس - الآية 5 .
- (8) - سورة الزمر - الآية 9 .
- (9) - سورة فاطر - الآية 28 .
- (10) - سورة المجادلة - الآية 11 .
- (11) - سورة يونس - الآية 24 .
- (12) - سورة يونس - الآية 101 .
- (13) - الطبراني في الأوسط .
- (14) - الطبراني في الأوسط .

سعيد أبو بكر والدور النضالي للقصة

الحفناوي الماجري

كيف بدأ كتابة القصة ؟

كان سعيد أبو بكر يهتم بنظم الشعر وكتابة المقالات الصحفية ولكن بداية من شهر سبتمبر 1924 أقحم نفسه في الميدان القصصي، وهو لم يفعل ذلك مجاراة منه لتيار فني معين بل لمسيب سيامي صرف. ففي تلك الأثناء ركز الاستعمار دعايته على تبرير وجوده في تونس بأن جعل من نفسه رائدا يقوم بشور انساني، وذلك بنشر الحضارة في أمة جاهلة. ويذكر سعيد أبو بكر هذه الظروف وبداية كتابته للقصة، فيقول: « كتب مسيو أرتير بليفرون رواية « فتاة الاسلام » ونشرها في جريدة « تونس الاشتراكية » وأظهر فيها فتائنا في صورة لا تتفق مع الحقيقة ولا حتى مع الخيال. ولم يكذ يخنمها حتى طلب الى البعض من الأصدقاء معارضته برواية أظهر لي الاخ صاحب « لسان الشعب » رغبته في نشرها بصحيفته. ففتحت « المسرح الاجتماعي » وكتبت ما تقوم به اليزبيت إحدى فتيات الغرب من الأدوار المخجلة. ولكن ما كاد يخرج « لسان الشعب » وبه الرواية الاولى، اليزبيت تنصب فخها، حتى قامت قيامه مسيو أرتير، وبلغ صراخه السماء، وأخذ يظهر على صفحات تونس الاشتراكية حسن نيته في تأليف روايته ⁽¹⁾.

فقد كانت كتابة سعيد أبي بكر للقصة نتيجة رد فعل تجاه ما كتبه فرنسي من رواية « بصور فيها الفتاة المسلمة تصويرا لا يرضاه المسلم. فكتب قصة صور فيها الفتاة الأوروبية تصويرا يظهر « استهتارها ». ونشر في هذا الصدد إلى أنه حدث شيء مماثل لهذه الحالة سنة 1907. ففي شهر سبتمبر من تلك السنة ألقى المسمى « بيقو » وهو مدرس بمعهد كارنو، محاضرة في نادي قنماء الصادقية تعرض فيها الى رواية كتبها فولتير وتحدث فيها عن النبي محمد وكلفه بامرأة تسمى زينب، وزواجه بها بعد أن طلقها من زوجها. وأحدثت هذه المحاضرة ضجة كبيرة، ورد عليها كثير من المتحمسين ⁽¹⁾.

ولكننا نلاحظ تطوراً بيني الفترتين، ففي الأولى كان الردّ بالمحاضرات والمقالات في شيء من المرارة والغضب، بينما كان ردّ سعيد أبي بكر في قالب قصصي . فقد أصبحت القصة الآن سلاحاً يستعمله كل من المثقف الاستعماري والمثقف التونسي لنشر أفكارهما، وخاصة في ظروف كان فيها الصراع حاداً بين نقابة العمال التونسيين بقيادة محمد علي والسلط الفرنسية .

وخصص سعيد أبو بكر، في رده على رواية أرثير بلّيقران باباً في جريدة « لسان الشعب » تحت عنوان « المسرح الاجتماعي » ، وكتب فيه أربع قصص هي : اليزابيت تنصب فخها (2) .

عيد الكرنفال (3) .

ضحية الحرب (4) .

الانتقام (5) .

اليزابيت تنصب فخها .

تحكي قصة اليزابيت تنصب فخها ، عن ثلاثة أصدقاء : عبد الله وعمر وهما تونسيان، وباسكال وهو فرنسي . . وانتهت السنة الدراسية وتفشّعت سحب أتعابها أمام عيني عبد الله، ولكنه لم ينس كلمة باسكال التي قالها له بينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث حول الاستعمار وفوائده المزعومة . ولا يزال يرنّ في أذنه صدى قوله : اننا لنرشدكم ونرفعكم في أعين العالم ونعينكم على الخروج من هوة الجهل العميقة وقد وصلنا إلى غايتنا ... ولكن أعيننا الحيلة في سبيل ترقية فئاتكم، وعيننا حاولنا تحسين رفح حجابها اليكم، وضربنا الأمثلة ببائنا الثلاثي لم يمتنعن ذلك على حفظ شرفهن .

هذه مقدمة القصة . وهي في الحقيقة تقدّم ما قاله أرثير بلّيقران في رواية « فتاة الاسلام » ، على لسان باسكال . ثم تأتي بقية القصة لتبين خطأ هذه الادعاءات . فبينما عبد الله وعمر يتجولان في الشارع إذ بفتاة فرنسية تتقدم نحوهما وتطلب منهما أن يدلّها على نهج ذكرته لهما، وإذا بها أثناء السير تراودهما على نفسها بشئ السبل . ولكنهما اشتمزا من ذلك وتركها سبيلها . وفي اليوم الموالي شاهداها تتجول في الشارع مع صديقيهما الفرنسي باسكال . فعجبا من ذلك إذ أن باسكال كان حدثهما عن شرفه وعفته، وإذا به الآن يحصل في فخ « عاهرة » . ولما راهما باسكال تقدم نحوهما وقال لهما مشيراً إلى الفتاة : أقدم لكما اليزبيت شقيقتي العزيزة . .

هذه القصة الآن تقدم البنا عالمين متناقضين كل التناقض : عبد الله وعمر شابان تونسيان يتشبهان بالقيم الأخلاقية . تقابلهما اليزبيت، فتاة فرنسية تستهتر بالقيم وتعرض نفسها في الشارع . ويأتي بين هذين العالمين عالم ثالث يحاول التوفيق بينهما وهو يتمثل في باسكال . فهو من ناحية صديق عبد الله، ولكنه من ناحية أخرى أخو اليزابيت المستهتر .

ولكن عنصر التوفيق هذا فاشل بالضرورة، لأن القيم التي يؤمن بها تداس تحت أقدام أقرب شخص اليه... ويظهر هذا الفشل خاصة في قصة «عيد الكرنفال». وقد ذكر سعيد أبو بكر أنها الفصل الثاني من قصة اليزابيت تنصب فخها ⁽¹⁾ ففي عيد الكرنفال أصبحت المدينة مكتومة بالاعلانات الكبيرة المختلفة الألوان، وقد شرع الأوروبيون على اختلاف جنسياتهم، وشرع معهم أيضاً بعض شبابنا المتعمدين في احضار الملابس المخصصة بذلك اليوم. وكلهم مستعدون لساعة خروجهم متتكرين الى حيث تداس الفضيلة وبيع الشرف، الى حيث تواعد الخل وخليلته والجار وجارته والصديق وابنة صديقه. في تلك الليلة دخل باسكال مغارة لشراء كسوة يلبسها في الكرنفال. ولما وقع اختياره على كسوة أخبره التاجر أنها بيعت منذ مدة قصيرة وأن صاحبها ذهب ليأتي بشئها. لكن باسكال أقنع التاجر ببيعها له. فلبسها وخرج الى الشارع وقد وضع على وجهه قناعاً للتكر. وبينما هو كذلك اذ بفئة متكررة هي أيضاً تدعوه، فسار معها، فعبّرت له عن اعجابها بكسوته وأظهرت حسن ذوقها اذ أنها هي التي اقترحت عليه شرائها. ثم سارا نحو حانة. وبينما هما كذلك اذ بشخص يدخل لاهثاً وقد تبعه فرنسي وأطلق عليه النار فأراده قتيلاً. وحضرت الشرطة، وأزاحت قناع القتل، فاذا به عربي. وعندئذ انزعج القاتل، وقال انه ظنه غريمه الذي كان يريد قتله وانه يرتدي نفس اللباس الذي كان يرتديه غريمه الفرنسي. ونودي الشهود، فأدلى باسكال بشهادته بعد ان نزع قناعه.



ARCHIVE

لكن الشرطة أرغمتها على ذلك. وعندئذ اكتشف باسكال ان تلك الفتاة هي أخته اليزابات. لقد كانت تعرفت على الشاب، واقترحت عليه ان يشتري تلك الكسوة. فلما رأت باسكال قد لبسها ظننته عشيقها.

فالقصة، كما رأينا، تنتهي بمقتل شخص واكتشاف باسكال لحقيقة أخته. وهذه النهاية تمثل في أعماقها موقفاً سياسياً أراد أن يعبر عنه الكاتب. فالرجل المقتول هو تونسي نزح عنه ثوبه الوطني ليغيره بثوب استعماري دخيل. والحق أن الامر لا يتعلق بمجرد لباس أو قناع أو احتفال بعيد هو عيد الاجنبي، بل أنه تعلق كامل بالمستعمر وقبول حكمه والرضى بسياسته في البلاد. ومن هنا تأتي جريمة الخيانة الوطنية التي ترتب عنها حكم الكاتب على المجرم بالاعدام.

ويبقى اكتشاف باسكال لحقيقة أخته، فهو اكتشاف المستعمر لحقيقته. فباسكال هذا كان يدعي ما يدعيه المستعمر: العفة ونشر الحضارة بين التوسيين. فاذا بالعفة تلوث في الشارع وفي الحانات، واذا بالحضارة المزعومة سفك للدماء.

وكيفما كانت النهايتان فإن وجود القناع ليربط بينهما . فالقتيل لم يعرف الا بعد ان نزع قناعه، كما أن باسكال واليزابيت عرفا بعضهما لما تخلص كل واحد منهما من قناعه وهكذا يصير القناع أعمق من مجرد لباس يوضع على الوجه بل هو في نهاية الامر قناع يخفي وراءه وجه استعمار مندهور ووجه رجل متفسخ خائن لوطنه . فهو ان قناع للزيف والانهيار .

وكانت النهايتان، نهاية التونسي الخائن والفرنسية العاهر، في مكان واحد هو حانة لا يؤمها الا السكارى والباحثون عن اللذة، وبالتالي مكان هو رمز الفسق والانهيار .
وتلك هي النهاية التي ينتبأ بها بكر للمستعمر ولحفائمه من التونسيين .

ضحية الحرب :

ولعل الانهيار الكامل للحضارة الغربية يظهر أكثر في قصة « ضحية الحرب » اذ تحدثنا هذه القصة عن شاب تونسي يسمى « اسماعيل » أخذ المستعمر بالقوة سنة 1912 وجنده ليشترك في غزو المغرب . وكان له أخ أصغر منه اسمه بشير اضطر للانقطاع عن التعليم والتفرغ للعمل حتى يعيل أمه . وانقطعت أخبار اسماعيل ، فاعتقدت أسرته أنه قتل في الحرب . ولكن اسماعيل بعد الانتهاء من المعارك في المغرب تحول إلى فرنسا للمشاركة في الحرب ضد الألمان « في أوت 1914 » . ولم في يوم من الأيام أن يكتب رسالة إلى أهله يعلمهم فيها أنه لا يزال على قيد الحياة . ولكن الأمر صدر إلى الجنود بالتوجه إلى الجبهة، فلم يستطع كتابة الرسالة . وأصيب في تلك المعركة بجراح نقل على إثرها إلى المستشفى . وبعد مدة أتى بجريح آخر إلى الغرفة التي كان يتداوى فيها اسماعيل . وكانت حالة الجريح سيئة جدا مما أدى إلى موته بعد أيام معدودة . وأرادت إدارة المستشفى معرفة اسم الميت . فلم تجد عنده الا أوراقه الشخصية وقد كتبت بالعربية . فسلمتها لاسماعيل ليقرأها . فإذا بها رسائل . ولم يكذ بقراءة السطر الاول من الواجب الاول حتى اصفر وجهه وأغمى عليه وسقط إلى الأرض . لقد اكتشف أن الميت هو أخوه « بشير » .

وإذا كانت قصة « اليزابيت تنصب فخها » و « عيد الكرنفال » تعبران عن موقف الكاتب من المستعمر في تونس، فإن « ضحية الحرب » تبرز موقفه تجاه الاستعمار بصفة عامة . فالبعيد السياسي جلي في القصة، اذ أن الكاتب دفع بشخصيته إلى الوقوف على حقيقة الاستعمار . وكان ذلك في بلاد مستعمرة هي المغرب وفي مهد الاستعمار وهو فرنسا، مما أظهر المستعمر في وضع مزدوج . وضع المبادر بالاستعمار، ووضع المعرض للاستعمار، وبالتالي أصبح الاستعمار قيمة في حد ذاته . ويأتي دور الأمم الضعيفة، ممثلا في شخصيتي اسماعيل وأخيه، ليجسّم هذه القيمة في حيز الواقع . وسواء تم تجسيهما أو لم يتم، فإن النتائج التي يتحملها الضعيف نتائج مندهورة باعتبارها وسيلة الاستعمار موضوعه .

ان هذه القصص الثلاث تمثل ثلاثية قصصية متكاملة فيما بينها إذ نجسم كلها موقف أبي بكر من المستعمر، في الأولى تجاه نواته الاجتماعية وهي العائلة، وفي الثانية تجاه عاداته، وفي الثانية تجاه اعادة، وفي الثالثة تجاه حضارته بصفة عامة .

وفي سياق التعبير عن هذا الموقف يقدم لنا الكاتب شخصيات تعاني نوعا من التناقض . فباسكال متناقض بين مبادئه الشخصية وانتماه الاجتماعي والتونسي المتطفل متناقض بين أصوله ونهافته على أشكال الحضارة المستوردة . والاستعمار متناقض بين حالته كمستعمر وتعرضه للاستعمار .

وكّل هذه النماذج التي تعاني مثل هذا التناقض تؤول الى نهاية فاشلة . اكتشف باسكال انهيار قيمته على يد أخته، والتونسي لقي مصرعه، والمستعمر تعرض الى امكانية الاستعمار من قبل دولة أخرى .

وقد تتحرك الشخصيات بمعرفة تامة بمصيرها، مما يجعلها واعية بتصرفاتها . فبعد الله وعمر بجاريان اليزابيث في رغبتها وهما يعلمان مسبقا بنيتها في نصب حبالها وبقرارهما في التخلص منها . وهذا التصرف جعل القارئ والشخصيات في نفس المستوى من حيث اطلاعهما على سير الأحداث، مما أخل بعنصر التشويق ليحمل الكاتب هذه الشخصيات دورا تعليميا تكتسب من خلاله صيغة دفاعية عن بعض القيم العربية، كالنشيط باللباس واللغة، فعمرو وعبد الله يقبحان رفع الحجاب، ويعرض عمر على الظهور باللباس العربي مع التمسك بلغته وعدم الالتجاء الى الفرنسية إلا عند الحاجة .

وقد تتحمل الشخصيات من الأدوار ما يجعلها تجسم المواقف المأساوية فيصور الكاتب من خلالها مشاهد مفعمة . ولذلك لا يصور لنا الحرب تصويرا مباشرا، بل بالتحول الى آثارها مجسمة في اسماعيل، فبينما كان منهما في كتابة رسالة الى أهله وهو يتناول كأسا من الليمون، إذ تصله الأوامر بالالتحاق بالجبهة، فيتخلى عن كتابة الرسالة وعن تناول الكأس كما تظهر مجسمة في شخصية بشير الجريح وقدملى جسده رصاصا، كما كانت تجسمت في شخصية أمهما فاطمة لما أخذ المستعمر ابنها اسماعيل الى الحرب، فقد « كانت تركز الى البكاء » .

وبالتالي فموضوع التجميع هو أسرة كاملة، من الأم الى ابنها الأكبر الى ابنها الأصغر، فكان الكاتب أراد أن يبين أن الحرب الاستعمارية هي محنة أجيال متتابعة من الأمة الضعيفة .

وتتطور الأحداث بتوازيها مع تطور في الأطوار المكاني . تنطلق قصة « اليزابيت » تنصب فقها ، من المدرسة حيث العلم والمعرفة ، وتنتهي في الشارع حيث الاستهتار . بينما تنطلق قصة الكرنفال من المغازة مركز/ الأتجار والريح ، وتنتهي في الجانة مركز التبذير والانتحراف . وأما قصة « ضحية الحرب » ، فإنها تنطلق من قرية تونسية حيث البراءة والسلام لتنتهي في الغرب حيث الحرب والخراب . وإذا بالنهاية في قصص سعيد أبي بكر تصاغ صياغة فنية تجعل منها مركز النقل في القصة ، إذ فيها يتواجد العقدة والحل . ففي آخر لحظة من قصة اليزابيت نعلم نحن أن بطلتها هي أخت باسكال ، وفي آخر لحظة من « عيد الكرنفال » يعلم باسكال بحقيقة أخته ، ولا ينكشف لنا أمر بشير إلا في نهاية قصة « ضحية الحرب » .

الانتقام

كنا أشرنا الى هذه القصة ضمن ما كتبه سعيد أبو بكر في جريدة « لسان الشعب » من أفاقيص في باب « المسرح الاجتماعي » ، وهي قصة اجتماعية تتناول مشكل الزواج ، ويظلالها صديقان توطدت عرى الصداقة بينهما حتى أن أحدهما وعد الآخر بتزويجه أخته . وتمت الخطبة ، ولكن بعد مدة اتصل الخطيب برسلة من والد خطيبته يعلمه فيها أنه تراجع في أمر تزويجه ابنته . فكتب له يتضرع ويظهر أنه لا يزال متمسكا بأذياله ويطلب منه أن يكتف بمعه ، ملاحظا له تعلقه بخطيبته وتعلقها به ، مشيرا الى الهدايا الودادية المتبادلة بينهما عن طريق أخيها ، ولكنه تأكد أنه كان يبحث لما أشيع أن أهل خطيبته شرعوا في زفافها الى غيره ، من ذوي الثروة الجاملين بقيمتها والذين جعلوا ذهبهم وفضتهم مغناطيسا يجلبون به قلوب هؤلاء الآباء . وعندئذ قرر الخطيب الانتقام ، فذهب الى حفل الزفاف وأطلق النار على صديقه وأخته ، ومات هو في السجن .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ولا شك أن للقصة مساسا بأهمية عنصر المال في المجتمع التونسي ، إذ هو الدافع لخلق أحداث جديدة نتجت عنها مأساة . فمفتتح القصة يوحي بأن العلاقة بين الصديقين قد تمت في جوهرى ، وغنائى تحتلته الطبيعة ، اذ تم لقاءهما بينما « كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية والعصافير تغني لدى حفيف أوراق السنديان » . وبدخول عنصر المال اضطربت العلاقة بينهما . فيكون أذاك عنصر المال بالمقابلة مع الطبيعة عنصر شر على العلاقات الانسانية .

- (1) - لسان الشعب 26 أوت 1924 عدد 193 .
- (1) - جريدة الحقيقة 28 مارس 1907 .
- (2) - لسان الشعب 3 سبتمبر عدد 156/1924 .
- (3) - لسان الشعب نوفمبر عدد 163/1924 .
- (4) - لسان الشعب عدد 158 ، سبتمبر 1924 .
- (5) - لسان الشعب عدد 57 سبتمبر 1924 .

- (1) - لسان الشعب 5 نوفمبر 1924 .

أهل الغار

قصة : أحمد الحمروني

لم نصدق أننا نجونا، ونحن ننظر الى بعضنا بعضاً ونأمل أنفسنا وذواتنا لتتأكد من حياة الوجوه المصفرة والاعضاء الفاترة والثياب الملطخة بالطين،، خرجنا كأشباح مرهقة تركت الاحجار النائية والتربة المبتلة أماراتها على المرافق والركائب والوجوه والشعور، أحننا قد عانى حمل بقايا القنديل في عنقه وبعضنا يحمل أحجاراً عجيبه الشكل غريبة اللون، وبمجرد أن لمحنا النور ارتخينا بجانب فوهة الغار ولا قوة لنا على الوقوف وعرضنا اجسادنا وثيابنا المبتلة عرقاً وماء لنسمة الغروب الندية ، ومن بعيد لمحنا السائق يسرع إلينا حتى إذا اقترب منا دلس القرامل نوس فرع آثار الغبار وبصوت مغتاط نادانا للركوب وانطلق بنا ولجما برحنا على الطريق الجبلية غير مبال بانقلابها في التواءاتها وبانجراح عجلاتها على نتوءات الصخور، ونحن متلاصقون توشك مقاعدنا ان تنهشم ونكاد نرتطم ببعضنا بعضاً عند كل اهتزاز وارتكاز ولا نبالي بعد ان عادت إلينا الحياة حتى اذا أدركنا حقيقة عين يونس اشفق علينا فمكثنا من الاغتسال عسانا نصبح بشراً... فتنفسنا الصعداء، وانقلب قمنا الى ضحك متواصل وحمد لله على الطافه، وفي الانثناء ذكر لنا السائق انه لما طال انتظاره لنا ساعات منذ الزوال حسب ان مكروها اصابنا نادانا من مدخل الغار فلا مجيب، وأسرع الى عمدة التجمع بحثاً عن يعرف مجاهل الغار وجاء بحارس الغابات فنزل حتى ادرك منبع العين ومكث يصفر وقتاً طويلاً فلا يزد عليه إلا الصدى، ثم خرج ليطلب من السائق ان يقبل شيئاً وهو لا يعلم أحياء نحن أم أموات، فتوجه مسرعاً الى معتمد البلدة البعيدة بنحو خمسة عشر كلمترا ليشعره بالخطر المحقق بنا ويطلب من أعوان الحرس ان يتأهبوا للحاق بنا مجهزين بالاضواء الكاشفة والحبال الطويلة بحوالي الف متر وقال له اني سأرجع اليهم ثانية عساني اجدهم قد خرجوا والا نعود اليهم ثالثة بالعدة اللازمة ونقضي الليلة في الغار بحثاً عنهم لعلنا ننفذ من تبقى قبيل الفجر .

لقد كان السائق - فعلا - أملنا الوحيد ونحن مغمورون في الغار لا يعلم بنا سواء ولا يسمع لنا صوت ولا يدرك لنا اثر بعد ان انزلق حامل القنديل المتصابي في حوض العين ففاجأنا انطفأ النور وهو دليلنا الوحيد وتملأنا الرعب الخانق وكانت ترخي بنا عزائنا لو لا بقية أمل في شمعة ضئيلة لم يمكننا نورها الضعيف من تبين مخرج لنا، فأضعضنا وقتا طويلا مخيرا بين اراحة الجسم لاجهاد الفكر وبين محاولات العثور عن المخرج من بيني عدة مسارب متشابهة متداخلة ودهاليز يطأها الانسان لأول مرة تسير فيها ساعات منحني ونعاني منها الارتعاش يردا وخوفا والانزلاق رهبة وننقوى على جراحنا وفقرنا فنجدها بلا منفذ فتأفف لحظنا العاثر ونحاسب انفسنا هل افترفت ذنباً يستدعي مثل هذا العقاب وندعو الله ان ينظر بعين الرحمة الى ابنائنا الابرياء فيعصمهم من التئيم ، وعندما يستيقظ فينا حَبّ البقاء نصارع الاستسلام القاتل وننهض لنجرب مسرباً اخر واخر، وفي كل مرة نستضيء باشعار قميص احننا، حتى اذا ادركنا الحوض وتأكدنا من كتاباتنا على صخره نطفنا الى أنه خيل الينا أننا نتقدم وإنما كنا نحوم تحته ، وأن الاسهم التي كنا نتبعها في بعض المواضع لا تشير الى المخرج بل الى مناظر اعجب سابقونا بروعتها وقد كنا لا نبحث عن التمتع بالجمال في العتمة بل كنا هاربين من الموت الذي تراءى لنا فاتحاً فاه في غيايات الهوة العميقة المظلمة، ولم يبق لنا عندئذ إلا ان نتذكر منعطفات المسرب الصحيح لنعود أدراجنا نحو فوهة الغار ...

وأثناء العودة أبت السيارة الملعونة إلا أن تأتي على بقايا قواتنا بعد أن افنت وقودها فاضطررنا الى دفعها مترجلين والسائق بداخلها يوجهها وهو يغني ونحن نردّ عليه :
« يا من لقلبي قد كوى ، وقد كانت في الصباح تسرع بنا الى حتفنا ونحن لا نبالي في الذهاب والاياب .

ورغم اصرارنا على كتمان أمرنا على أملنا خشية ازعاجهم افتضحنا في السوق وقد وجد جلّاس المقاهي في معامرتنا لا موضوع الساعة فحسب بل قضية الصائفة بأكملها أما نحن فبقينا اذا تقابلنا من بعيد انفجرنا ضحكا وصاح بعضنا ببعض هازلا : « لا بد أن نعيد الكرة » وعلى كل حال فقد كذبنا الاسطورة وأصبحنا خبراء الغار .

أحمد الحمروني

قصائد قصيرة

1 - القصيدة .

ومضت ..
ثم استقرت هاجسًا ...
في غفوتي
وسرى اللحن شمعًا ..
فرايت الكون ينمو وردة في شفتي



2 - صبرا ...

أسافر فبك ...
أفتش عن وجه صبرا ...
أفتش عن بسملة لم تطأها الحضارة .
فتصفني حزمة من جراح ...
وأنت صوت تهتم ...
يسخر مني ركام الحجارة .

3 - ربيع

افتح سلالك ...

فصل الخصب بالباب

وازرع حروفك في كل الدروب يكن

بكل خطبو فراش حول اعشاب ..

الشاعر حسين العوري

« العلم وسيلة الرقي »

بين واقع المسلمين اليوم وما كانوا عليه بالاسر فرق كبير هو كالفرق بين الحركة والجمود او بين الحياة والموت .

ولذلك لا يكاد المسلمون اليوم يلتفتون الى هذا الامر حتى يشعروا بالحسرة تملأ قلوبهم وكيف لا يشعرون بذلك وهم بالامر كانوا يصنعون المجد ويمحرون الكون ويرفعون لواء العلم ويقومون بهداية الانسان الى الطريق المستقيم، واذا هم اليوم يعيشون حياة توصف احيانا بالتخلف او تضعهم احيانا في درجة العالم الثالث اذا قصد بذلك احترام المشاعر . فما الذي حدث وغير من حالة المسلمين ؟ يذهب الكثيرون في تفسير هذه الظاهرة الى القول بتخلي المسلماني عن جوهر الدين وانساقهم وراء الشكليات، وانغماسهم في صراعات سياسية ومذهبية جوفاء الهتهم عن الهدف الذي رسمه الاسلام للانسان في الدنيا والاخرة واضلعتهم عن سواء السبيل وقادتهم في متاهات فكرية لا طائل من ورائها حتى وجدوا انفسهم بعد ان كانوا شعلة وضاءة في سماء الكون تهدى بنورها كل هائر في وضع لا يقدرون فيه حتى على هداية انفسهم .

ان الاسلام دين الكرامة الانسانية . لانه الدين الذي رفع من منزلة الانسان فوق منزلة جميع المخلوقات، وفصله حتى على الملائكة، وجعله مسؤولا عن عمله، وأمره بتعمير الكون وحمله الامانة التي عجز عن حملها كل مخلوق مهما عظم شأنه . فقد عجزت السماوات والارض والجهال والبحار عن حملها، ولكن الانسان وحده هو الذي رضى بحملها بقول الله تعالى « انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجهال فلهين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان » .

وقد كان المسلمون في مستوى تحمل هذه الامانة منذ ان اخذوا بهدي القران ، فعمروا الكون وفتحوا البلدان ورفعوا من شأن الانسان فآكرموه واحترموا ارادته وحريته الى ان عصفت بالمسلمين الاهواء واطلقتهم عن السبيل وبقوا نائمين مدة قرون الى ان هبت عليهم نعمات جديدة فبعثت في اجسادهم حركة الحياة واخذت تدب شيئا فشيئا حتى هبوا من جديد يعيشون عن كل ما يعيد اليهم قوتهم ودورهم التاريخي والواقع ان اشعاع الاسلام لا يمكن ان ينطفئ، وان طمسته بعض التراكمات فصرعان ما يلتهب من جديد ويبدد ما تراكم من المظلمات .

واول سبيل رسمها الاسلام للمسلمين لكي يمتلكوا بها زمام القوة هو سبيل العلم . العلم الذي فضل الله به الانسان على الملكة « وعلم ادم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملكة فقال انبثوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قلوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » .

والعلم في الاسلام جوهر العقيدة فأول اية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم اشتملت على العلم « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » وبه يدرك الانسان اسرار كتاب الله * حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » ويدرك به حدود الله * وتلك حدود الله بينها لقوم يعلمون * كما يبلغ به منزلة الخشية من الله « انما يخشى الله من عباده العلماء » والخشية انما تتم بعد ان يدرك الانسان عظمة الله من خلال ادراكه لاسرار مخلوقاته . وبالعلم ايضا يعرف الانسان اسرار الطبيعة ويدرك قوانينها ويتعرف على كيفية السيطرة عليها والاستفادة منها وترويضها والتحكم فيها .

ويقدر ما يرتفع ادراك الانسان بقدر ما ترتفع منزلته وتتعاظم قدرته « يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وبالعلم ايضا يدرك الانسان ان الدين حق « ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق . وقد رغب الاسلام في العلم وحث عليه ، في حديث مروى عن ابي الدرداء قال سمعت رسول الله يقول « من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة وان الملكة تلضع اجنتها لطالب العلم رضا بما يصنع وان العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الارض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الانبياء ، وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم ومن اخذه اخذ بحظ وافر ومن خلال هذه الايات والحديث يرسم الاسلام للمسلمين طريق القوة والسلامة ويضع بين ايديهم وسيلة الرقي وعمارة الكون وخلافة الله في الارض تلك الوسيلة من العلم الذي يرجع اليه الفضل في رقي الامم والشعوب والذي يفضله وحده يتمكن الانسان من السيطرة على الدنيا ومن اخضاعها والاستفادة من كنوزها واستخراج خيراتها وجعلها مشاعة بين الناس .

والعلم هبة الله للانسان لتكون اداة عزة ووسيلة صراعه ومعرض قدراته ولغة حوار مع الكون .

فهو يمتلك المسلمون اليوم هذه الوسيلة خاصة بعد ان شاهدوا كيف استطاعت بعض الامم ان تبلغ منزلة المجد بفضل ما توصل اليه افرادها من الاكتشافات العلمية الباهرة . لنن كان الاسلام رسالة انطوت على كل ما يفجر في الانسان منابع الخير . فان المسلمين للأسف قد تخلوا عنها فضاخوا وناهوا وتقهقروا . ولذلك يتحملون مسؤولية ذلك واذا ارادوا ان تفهم العزة والمناعة والخروج من التخلف فليس امامهم الا طريق واحد وهو طريق العلم . يأخذ به الكبار والصغار ويسيرون على هديه ويبنون على ضوئه حياتهم . فبالعلم تحل مشاكل التخلف ويفتح باب الرزق ويرتفع مستوى الانسان الثقافي والاجتماعي والاقتصادي . وتتحقق الحرية الحقيقية التي تخول له التصرف بكامل ارادته وان يعيش مع الآخرين في كنف الاحترام وتبادل المنافع .

واذا عجزت المذاهب في ايجاد طريقة مثلى للتعايش بين البشر على اساس العدل واحترام المصالح فلانها قيدت العلم بخدمة تلك المذاهب . اما الاسلام فالعلم عنده اداة للرفع من شأن الانسان في كنف التعايش السلمي والتآخي بين البشر والعدالة والمساواة .

فالعلم فضيلة الانسان وهو مجعول لتحقيق مطامح الانسان في السعادة الدنيوية والفرز برضاء الله .

لذلك على جميع المسلمين وخاصة الشباب ان يدركوا هذه الحقيقة حتى يعلموا حدود مسؤولياتهم ولا يضعوا في البحث عن الاسباب الواهية ولا يستسلموا للانتقادات الباطلة .
اذ لا حل لما نحن عليه من التخلف الا بالعلم والانكباب على العلم كما انه لا حل للتخفيف من حدة الصراع البشري والقضاء على الرغبة في الهيمنة والاستبداد الا بالعلم في نطاق الايمان بالله والالتزام بحدوده والتمسك بالقيم الاخلاقية الفاضلة .
وبهذا يحصل التغيير المنشود « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

احمد العربي



النثر الأدبي في العصر الجاهلي

إن الدارس لتاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي لا يكاد يلمس وجودا لغوي الأسلوب الشعري تقريبا ما عدا بعض الخطب المسجعة التي لا تختلف عن الشعر كثيرا ولم تعرف للنثر الأدبي مكانة إلا بعد ظهور الإسلام، وانعدام التراث النثري في العصر الجاهلي يعد ظاهرة غريبة في تاريخ أدبنا العربي خاصة إذا ما علمنا أن قيوده أقل من الشعر بكثير وأن الإنسان يجنح من طبعه إلى السهولة، فالتمسك بالمنطقي لتطور الفنون يقتضي البدء بالأسمر حتى يصل الإنسان فيما بعد إلى الصناعة الفنية الصعبة والحكمة الأدبية الرائعة .

ومن هنا يكون الأسلوب النثري هو بداية الأساليب الأدبية الواجب استعمالها للتعبير عن قضايا حضارية معينة لتصل فيما بعد إلى السجع ثم الشعر . وكان هذا شأن بقية الأمم تقريبا إذ كانت أغلب فنون الأدب عندها متلازمة أن لم يظهر النثر فيها قبل الشعر . غير أن العرب عملوا بعكس هذه القاعدة فكانت الأسبقية للشعر عندهم .

فهل يعقل إذن أن يكون العرب الجاهليون قد بدأوا فعلا أدبهم بتعاطي فن الشعر، خاصة وأن النصوص النظرية التي وصلتنا من العصر الجاهلي قليلة ولا يكاد يعتد بها نظرا لاقتصارها على بعض الخطب المسجعة <http://Archiv>

هذه ظاهرة غير منطقية في نظري، وقد كانت محل جدال طويل بين الأدباء في عصرنا إذ درست هذه القضية المرار العديدة وأثيرت حولها الخصومات الأدبية والمذهبية أدت إلى حد التشكيك في حقيقة وجود الشعر الجاهلي نفسه .

غير أنني أرى أن الشعر الجاهلي حقيقة لا نقاش فيها والتشكيك في وجوده هو نفي لفترة تاريخية هامة في حياة أممنا العربية . وأعتقد أن انعدام الأسلوب النثري الذي كان من المعقول أن يسبق هذه الظاهرة الأدبية يعود إلى عدة أسباب يمكن شرحها بالاعتماد على أوضاع العصر الجاهلي ونفسيات أهله وظروف حياتهم .

العرب الجاهليون يتكلمون لغة فصحي خالية من أي لحن وتحريف فلم يكونوا في حاجة حتى لو وضع قواعد نحوية أو صرفية للحفاظ على سلامة اللغة إذ لم يشعروا بدافع لذلك، ونحن نعلم أن القواعد اللغوية قد وضعت بعد ظهور الإسلام ودخول عدة أمم فيه إذ كان لا بد حينئذ من تعليم هؤلاء لغة سليمة قواعد مضبوطة من ناحية ومن ناحية أخرى كان لا بد من حماية اللغة العربية من الألفاظ الدخيلة عليها .

فلا يمكن إذن نفي وجود نثر في أدبنا العربي في العصر الجاهلي غير أنه لم يدون
لسبب وحيد تقريبا وهو أن العرب الذين كانوا يتكلمون هذه اللغة بديها لم يكن عندهم
من الإبداع في شيء أن يكتب أحدهم في لغة العامة أثرا ما فكان ما ينطقون به هو النثر
الأدبي عندهم .

وعلى عكس ذلك كان الشعر صنعة فنية وأدبية يتفاخرون بها ويتبادلون في اجادتها
شكلا ومضمونا فأقاموا له المهرجانات العكاظية التي احتلت مكانة مرموقة في حياتهم
اذ كان الشاعر في ذلك العصر السلاح القوي والزعيم السياسي والخطيب والصحافي
والمؤرخ يبحث الهمم في المعارك ويخلد الانتصارات ويعلم الناس القيم العليا نظرا لسهولة
ذبوع فنه بين الناس - فكان ولوع العرب بهذا النوع من الأساليب الأدبية كبيرا الى درجة
انهم اعتبروه مظهرا من مظاهر الوجاهة . وهو عندنا الآن مادة ثرية ومرجع هام لدراسة
تاريخ العصور البائدة .

وأعتقد أن ملامح العصر الجاهلي لم تكن لتصل إلينا لو لم يحتل الشعر تلك المكانة
خاصة اذا ما علمنا وأن وسائل الطباعة كانت منعمة في تلك الحقبة من الزمن .

هكذا كان الشعر الأسلوب الأدبي السائد والوحيد في العصر الجاهلي .

ومع ظهور الاسلام ظهر أسلوب القرآن واعجازه وهو أسلوب جديد، فقد جمع هذا
الكتاب المقدس في أسلوبه مميزات الشعر والنثر فكان أسلوبا اعجازا لم يسبق اليه البنية
ولا جال في بال أحد الشيء الذي جعل أنظار الناس تنحى اليه فسهل تناقله ويسر حفظه
وهي حكمة الالهية .

وبدأ العرب ينسجون على منواله ويحاولون تقليده فظهر النثر المسجع الذي ولع به
الناس في تلك الحقبة من الزمن ولوعا كبيرا وتفننوا في التخاطب به الى درجة المبالغة
المفرطة، وقد حكى ان قاضيا عزل من أجل كلمة مسجعة - اذ قال له الخليفة : « أيها
القاضي بقم » ... ولم يجد كيف يسجع كلامه غير « قد عزلناك بقم » . وعزله حسب
ما جاء بهذه الرواية التي نفهم منها شدة اهتمام العرب بهذا اللون من الأدب الذي أصبحوا
يعبرون به عن كل اهتماماتهم واستعملوه حتى في الخطب السياسية فقد قال الحجاج بن
يوسف مخاطبا أهل العراق « يا منبت الشقاق والتفاق » .

وفي ميدان العلوم الصحيحة لجأوا الى هذا الأسلوب المرنم والمسجع والامثلة على ذلك
كثيرة . على ذلك كثيرة .

وتطورت الحياة وتشتت الاهتمامات وخلق الاسلام أوضاعا فكرية جديدة كان لا بد للعرب عند دراستها من اللجوء الى الأسلوب النثري حتى يمكنهم تدارس مشاكل حياتهم بكل ترو وتعمق بعيدين عن الأساليب الشعرية العاطفية التي نهى القرآن عن اتباعها ، والتي لم تعد قادرة على التعبير على المواضيع العلمية والفلسفية والفقهية فكان النثر الفلسفي والأدبي المتحرر من كل القيود الشعرية التي تكون عائقا في بعض الأحيان للتعبير عن هذه الأغراض الجديدة، خير أسلوب وانجع طريقة .

ومن هنا نفهم لماذا لم يصل إلينا النثر العربي في العصر الجاهلي الذي يكون قد كتب فيه البعض للتعبير عن أفكاره غير أنه لم يجد الصدى الحسن واعتبر أضعف أنواع الفن في ذلك العصر فلم يعتن به أحد .

غير أنه احتل مكانته المرموقة في عصرنا الحاضر وأصبح الشعر هو الذي يكاد يكون منعدم الوجود، فالشعراء يعدون على الأصابع، واهتمام الناس به قد امحى إذا ما استثنينا بعض رجال الأدب الذين يتناولونه بالدرس في مناسبات قليلة وقليلة جدا .

المختار علي



قصيدتان لجنية الماء والنار

(١) □ ظمأ □

أفق أيها القلب
وافتح نوافذك المغلقة
ستأتيك ذات الخمار
ستأتيك جنية الماء والنار
قل :

انتي قد ضمأت إليكِ
فلا تفتحيني عليك
وقل :

لماذا تحاورني شفتاك بصمت الكلام
ولا تنطقان بهمس القبل ؟

.....

سلام عليك
سلام لعينيك لون العسل



<http://Archivebeta.Sakhril.com>

(٢) □ اعتراف □

دعيني أحبك حتى أكون
بيننا هالة العشق والانبهار
...وهذا الجنون

تثيريني بذاك البهاء
وأغسل جسدي من غبار الفصول ،
ومن تعب الاشتهااء
منك يندلع الطير والعشب
منك سيشتعل الماء

هل أنت كل النساء تجتمع
أم أنت فتية شاعرة
تكتبين بماء الحريق
قصيدتك الباهرة ؟

●
علام الرحيل ؟
أعيدي إلي جنوني وحلمي الجميل
أعيدي والي كتابي وذاكرتي
وكل التفاصيل

●
أين انت وأي زمان يناديك
أي مكان
سألت بيوت الصلاة / المخططات / تلك الجهات .
سألت الخطي والدروب / الزوايا
سألت المرايا ووجهي الذي كان

●
سؤالي حريق -
وهذا الجواب دخل

●
إنني غارق في الذمور
وهذا اعترافي بأنك جنية الماء والنار
فلا ترحلي - فجأة - في الظنون
دعيني أحبك حتى أكون
بيننا هالة العشق والانبهار
وهذا الجنون

ع . م . ق

1985/2/22

الموت

قصة مصطفى الكرواشي

وقفت في منخل الغرفة لاهثا ... العرق يتصبب في كامل جسمي ... لقد قطعت المسافة وأنا أجري - أهول - أسرع الخطي - أريد أن أرف البشرى الى جنتي المقعدة - تسمرت في مكاني - اتحبست أنفاسي ... جنتي جالسة على البساط الخريفي - يدها اليمنى على الخد الأيمن - عيناها مشدودتان الى التلفاز ... صور من البشاعة والقتل والهدم تنبؤ الى وصوت المنيع يعلن في شبه نواح عن مجازر التفتيل والتشريد وعن تقدم الأخطبوط الصهيوني بأقدام ثابتة نحو بيروت الحبيلى بالجراح والآلام ... المذبحة متواصلة كأشد ما يكون - عشرات الأطفال والنساء والثوار تتساقط كأوراق الشجر الخريفي تحت أقدام الأخطبوط المعادي ... صهيل الوحش الدموي يملأ الفضاء ... وهذا الكون العربي صامت ومكتمش الى خد الفضاء ...

تكور جسد جنتي النجيل وانبعثت منه زفرة محمومة أطلقتني من شرودي ... ونعمت صوت جنتي المهزوم : « لم يبق في هذا العالم عربي واحد حتى أشباه العرب استحبوا من الساحة تحت وطأة أقدام الدنيسور الهمجى - لله أنت يا علي بن طالب، هلاً أطلقت علينا من وراء كثبان الصحراء ... » وهممت بالاقتراب من جنتي لأرف لها البشرى ولأحادثها عن العرب وعن الأجيال العربية الواعدة، لكن صوتها المهزوم جاءني من بعيد تطوفه أمة قاتلة ... « لما يا الله لم تنتهي هزائمنا الدموية من جيل الي آخر ! ليت الطوفان يجهض علينا مرة واحدة، وينسى التاريخ أننا وجدنا ذات زمن وأثنا حكمنا العالم ذات مرة .

« جنتي لقد ... »

لقد انتهى كل شيء وأحرقت بيروت وأخرجنا ثانية من الأندلس ولم يعد لنا مكان .

ولكن يا جنتي !!!

لكن التاريخ يعلم أننا انتحرننا من تلقاء انفسنا، نحن قوم نعشق الفناء والخذق الفاصل بين الحياة وبيننا شيدناه بسواعدنا .

يا جنتي لما كل هذا التشاؤم ،، يا جنتي على أنقاض الهزائم سنبنني صرح وجودنا
المتماثل ، سنصل بالصخرة الى سفح الجبل وسنعايق الحياة على مجاريها ... يا جنتي
- يا جنتي ... !

واحتضنت جسم جنتي - حرّكه قليلا .. نداعى وسقط على البساط كومة هامة ...
وكان صوت المذيع يرتد في حماس مفعّل : سنرجع - سنرجع ... ثورة حتّى النصر
- النصر للعرب والهزيمة لاعدائهم ...

وصرخت من أعفقي : كيف تموتين يا جنتي دون أن أرّف لك البشرى ؟ ...

م . ق



يسرنا ان نذكر قراءنا الاعزاء بأن ما ينشر بـ « الاتحاد »
لا يلزم الا صاحبه ، وأن كلمة الجهة هي وحدها التي تعبر عن
رأي أسرة المجلة .

التل العلوي في الكشوف والتاريخ

نحن لا نعرف شيئا ينكر عن الحياة في بلاد المغرب قبل أن يدخل البرابرة في صراع مع الفينيقيين ثم مع الرومان، لذا نعتبر الألف الثانية ق، م، بدء الدخول هذا الجزء من أفريقيا مدار التاريخ . إلا أن ما كتب عن اسلافنا فيما بين القرن الثاني عشر ق، م، وواخر القرن السابع الميلادي - وهي مدة تقدر بشمانية عشر قرنا - لا تعدو أن تكون توضيحا لمواقف غامضة في مسيرة كل من الفينيقيين والرومان الذين ننازعوا خلالها الإقامة على أرضنا .

لذا تكثفت الاخبار - نسبيا - حول قرطاج ، وتعددت رواياتها، واختلفت مصادرها، بينما انعدم الخبر المفرد - او يكاد - عن الحياة الالهية في المدن والقرى والارياف .

فهل نرجو بعد ذلك خيرا عن منطقة « التل العلوي » في أعماق التاريخ ؟

لعل من الانسب تحديدها جغرافيا لتعرف موقعها من البلاد اليوم، فنلاحظ أنها المنطقة الأكثر ارتفاعا عن سطح البحر بمعدل 400 م، وتتكون من بعض جبال « سلسلة الظهرية » وسهول تتخللها بعض المرتفعات المنفردة، وتكون اداريا ولايتي « سليانة » و « الكاف » . تنتهي غربا بحدود الجزائر، وشمالا بسهول ماطر وباجة وجندوبة اقليم « منطقة مجردة الوسطى » وجنوبا بمنطقة « السباسب » من إقليم « الوسط العلوي » .

وبما أننا نتحاشى الدخول في دوامة الافتراضات والآراء، فنحن لن نحدث عن هذه المنطقة في عهد المدينيات القصصية والوهرانية التي تمتد فيما بين 10.000 و 5.000 سنة ق، م لان خرائطها أبقت « التل العلوي » على تخوم الاولى جنوبا وغربا، وعلى تخوم الثانية شمالا، غير أن تأثيرها واقع لا شك فيه، لأن ما عثر عليه من الآثار في منجم « سيدي الزين » غربي مدينة « الكاف » يقوم دليلا على استعمال الاقنمين هناك انوات ثبت أنها من معيزات العهود القفصية والوهرانية، وهي مدينيات يتوقع المؤرخون انها حدثت بعد فترة الجليد الأخيرة، التي سبقت مولد المسيح بنحو من 14.000 سنة، وانتهت قبل العصر « النيوليتي » الذي انتهى بدوره حوالي 3.500 سنة ق، م .

ولا نعني بدخول البرابرة في التاريخ بدءا من الألف الثانية ق، م، ولا بحصر الحضارات القديمة والوهرانية فيما بين 10.000 و 5.000 سنة ق، م، أن أخذ التاريخيين بدء حياة الإنسان في المغرب لأن أقدم إنسان عثر على أثر له، في هذه الربوع، عاش - حسب القراءات الأنتروبولوجية - منذ ثلاثمائة ألف سنة، ولا يستبعد الدارسون أن يكون قد عاش منذ أربعمئة ألف سنة .

وبما أننا اعتمدنا ألا نطيل الحديث في فترات ما قبل التاريخ للأسباب التي أسلفنا، ولأن الآثار المدفونة في هذه الرقعة لم يكشف عنها حتى الآن، وفي انتظار أن نعد خرائط أثرية ومخططات لحفريات تمكننا من دراستها وشرح دلالاتها، فنحن مدعوون إلى معرفة ما كانت عليه منطقة « التل العلوي » في بدء التاريخ .

انطلاقا من التقاليد والعادات والأخلاق وطرائق العيش التي سجلها المؤرخون لأسلافنا عرضنا .

- واعتمادا على دراسات سوسولوجية أولية لما لاحظته الدارسون المعاصرون من أنماط عيش البربر في القرى المحاطة خلال العقود القليلة الماضية .

رأى هؤلاء في كثير من مظاهر الحياة البربرية العائلية والفلاحية والعقائدية والمعمارية والفنية تجذرا في التاريخ، لدلالاتها على عقلية قارة لا تتكون إلا عبر أزمنة موعلة في القدم، تنصف بالصدوم ازاء مختلف المشاكل السياسية والدينية فائنتوها . وبذلك تكونت فكرة عن المدنية البربرية، فحدث المؤرخون عن أهلها حديثا ينطبق على سكان صحراء « السوس » وسواحل الاطلنطي، يمثل ما ينطبق على سكان صحراء « سبها » وسواحل « طرابلس » مع تفاوت قد لا يبدو هاما لأنه طبيعي في كل العصور، ومن المؤكد ألا يشذ أسلافنا في منطقة « التل العلوي » عن هذه الصفات، إلا بمقدار ما تفرضه طبيعة المناخ والتضاريس وابتعاد السكان واقترابهم من طرق القوافل أو الموانئ .

وبناء على ذلك عرف هؤلاء حياة البداوة والغزو التي ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، وعاشوا حياة الحضر حتى في الجبال بعد ما حذقوا الفلاحة، ومن الأمثلة على ذلك مدينة « الكاف » . ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن البربر عرفوا بدون شك حياة الحضر منذ العصور الحجرية، وفي مقدمة الأدلة على ذلك مساكن الحجارة الكثيرة المكتشفة غربى البلاد التونسية، الأمر الذي يجعلنا أمام مرحلة أولى للفن المعماري . وما تزال « كسري » حتى اليوم (ولاية سليانة) المثال الحي المتكامل لروعة الحياة البربرية في القرية الفلاحية الجبلية . لولا النشاط الذي بدأ يدخل هيتها (تغيير مساحة القرية - سانية المسجد) وبناءاتها (تقنيات الاسمنت) فل على تصرف لا يخضع لهيئة علمية، فضلا عن تهية فنية مختصة يشرف عليها المعهد القومي للآثار وديوان السياحة .

واذ سمح المؤرخون بـ « الاعتماد على ملاحظات حديثة لتعويض الحلقات المفردة من الوثائق، أو ربط أحداث واقعة خلال مختلف العصور تظل غامضة من دون ذلك فعلينا ألا نشك في أن سكان « التل العالي » في غابر العصور كانوا من مهرة الصيادين، ومن مهرة صانعي الأسلحة . لأن تضاريسه بما اشتملت عليه من جبال الطهرية، وما انبث في سهوله من مرتفعات متفردة تفرض عليهم أن يكونوا كذلك دفاعا عن أنفسهم، وكسبا لقوتهم، وفي فترة لاحقة دفاعا عن مواشيتهم، ثم عندما عرفوا الفلاحة دفاعا عن حقونهم التي تهدها بالاتلاف فئات من الطيور والحيوانات والوحوش التي ملئت تعمرها إلى وقت قريب .

وسواء كانوا مقيمين في أماكن قارة تقيم فيها الحرّ والقرّ أكواخ الحجارة والطين، أو كانوا رعاة يقضون الشتاء بماشيتهم في السهول، والصيف في المرتفعات تأويهم أخصاص تغطي بالقش أو بما يشبه الحصير، وتتميز بامكانية نقلها، فقد عنوا بتربية ذوات الطلف وذوات الحافر، وتربية الدواجن والنحل، وتدل أطعمتهم المتخذة من النباتات والحبوب وشراب العسل والالبان والبيض والصيد على أنهم ذوا قناعة، وأنهم شبه نباتيين، لذلك لا يذبحون حيواناتهم الاندرا، فهم يربونها للالبان والصوف والشعر والقرون ويجففون سرجينها فيوقدون به أفرنهم ، ولاستعمالها في النقل وحمل الاتقال وشؤون الفلاحة .

ومع أننا نكاد نفتقد كل شيء عن الحياة الداخلية في العائلة والقبيلة وعن تكون الممالك البربرية ونظمها وأماكنها وقادتها، فإن صراعهم مع بعض الشعوب قد احتل في التاريخ صفحات « التل العلوي »، فيها نصيب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذلك هو موضوع الحلقة المقبلة .

محمد الحبيب حمّادي

الأمل

أملني
والدنيا تنادي
من باحة الصدر الضيقة
سنبله للوطن
وردة في لون الارض
كلمح بالبصر
قطعة حلوى
وحفنة من عروق الوطن .

أملني ...
أن يصعد وطني
ويصعد
ويصعد
حتى يُدرك بسمه الأمل .
فاكتبو
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

فوق صدري هذا ←
خزينة المحن
إننا نكتب الأمل ساعة .
لنطلق صرخة الأمل

يا زمن ...
يا زمن ...
يا أرضا تسقي بالمحن
بحرقه صدري
بدمعة حلوة
تحرق خذي
لتقبّل حبات أرض الوطن .
يا وطن ...
يا وطن ...

إننا غاية
تسقط
أمام غاية الوطن
فيا هاديتي بالسمع
مثل الدمع
والدمع عشق لا مفر
أو من
أنه ؛ بيني ... وبينك .
يا هاديتي ..
رؤيتونة شامخة
شامخة في الفضاء .
أصلها وطن .
وفروعها لا تعرف الانحناء .

يوسف عبد العاطي



اركان قارة

ابتداء من العدد القادم ، تظهر بالمجلة اركان جديدة وقارة
منها : مسيرة الثقافة - مع المنشورات الجديدة - بريد القراء .

من اشكاليات التنمية في العالم الثالث : الانفجار السكاني وخطر المجاعة

يتميز العالم اليوم بتناقضات صارخة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي يمكن وصفها بشحنة من المتفجرات التي تهدد امن البشرية ومن ابرزها تضائل الموارد الحياتية وتزايد السكان، وقد ادرك الخبراء منذ فترة طويلة ان الخيرات التي يحويها كوكبنا محدودة نسبيا ومما يجعلنا نشعر اليوم بمخاطر التزايد الديموغرافي في ارتفاع الاستهلاك وتطور حاجيات الانسان . لقد استفحل النقص الغذائي بل اصبح شبح المجاعة يخيم على العديد من البلدان الواقعة في قارتي اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية وذلك نتيجة تراكم عوامل داخلية واخرى عالمية تتصل بنظام المبادلات المجحف الذي فرضته معطيات تاريخيه تعود الى فترة الاستعمار واستمرت الدول الغنية في تكريمه وتدعيمه مما جعل الهوة تتسع بين مستوى عيش السكان في العالم المصنع والعالم الثالث حيث تزداد الظروف الحياتية في هذه الاخيرة تدهورا وتفنيا . واذا ما استمر الوضع على هذا المنحنى فان العالم بامره يدنو تدريجيا من مواجهة خطيرة مع المجاعة وتبعاتها المختلفة بالاضافة الى ما يتهدهده من مخاطر تؤثر العلاقات الدولية والاجتماعية .

ونظرا لما يتميز به الموضوع من مجالات واسعة للبحث وابداء الرأي فاني سأقتصر على الوقوف على مظاهر اشكالية الانفجار السكاني وتضائل موارد التغذية وتحديد العلاقات السائدة في هذا المجال بين ما نسميه - في اطار هيكله العالم - الدول المصنعة والغنية والدول المتخلفة والفقيرة، هذه الهيكلية التي افرزت علاقات تميزت بالتبعية والمساعدات المشروطة .

1- الانفجار السكاني المخيف : ضلّت نسبة تزايد سكان العالم محدوده الى زمن غير بعيد اذ لم تتعد في نهاية القرون الوسطى 0,02% لكن منذ مطلع القرن الثامن عشر دخل العالم طور النمو الديموغرافي السريع ليبلغ حاليا نسبة 2% وتحتل بعض البلدان الصدارة في هذا المجال حيث تصل نسب النمو بها الى 3,5% في حين تتعادل الولادات والوفيات في بلدان اخرى بينما تقلصت الولادات الى ما دون الوفايات في عدد محدود جدا من البلدان وهو ما يفرض علينا التخصيص عند التعرض الى ما اصطلح على تسميته بالانفجار السكاني .

وتؤكد لدينا أهمية الفوارق بالوقوف عند بعض الاحصاءات الرسمية الصادرة عن صندوق الامم المتحدة للنشاطات السكانية التي تشير الى ان عدد سكان العالم ارتفع فيما بين سنتي 1974 و 1984 من 2,99 مليار نسمة الى 4,76 مليار نسمة ويمثل نصيب البلدان النامية في هذه الزيادة 95% .

وحيث ان نسبة النمو تتفاوت من الفارق بين الولادات والوفيات نجد ان المرأة الافريقية مثلا تنجب بنسبة 6,43 طفلا فيما بين 1980 و 1985 بينما تبلغ نسبة الانجاب عند المرأة الأوروبية 2,6 في نفس الفترة وفي المقابل انخفضت نسبة الوفيات الى ما دون 11% في نفس الفترة وبذلك يتوقع ان يبلغ عدد سكان العالم في نهاية القرن الحالي 7 مليارات ؟ وسيمثل سكان البلدان النامية الرابع اخماس !

يرجع هذا التطور السريع الى الانعكاسات الايجابية للثورة الصناعية التي شهدتها اغلب الدول الأوروبية خلال القرنين 18 والتاسع عشر حيث مكنت من تأمين التموين الغذائي وتحسين ظروف العيش غذائيا وصحيا فزال خطر المجاعات والابوة التي ميزت الفترة السابقة وسجلت الوفيات نقلا ملحوظا خاصا في صنف الاطفال والرضع بينما تواصلت نسبة الخصوبة والانجاب مرتفعة وتنامي معها عدد السكان في اغلب بلدان العالم لكن سالدول المصنعة وخاصة الأوروبية منها عمدت الى التنظيم الطوعي للأسرة قصد تحقيق استقرار عدد السكان وتحسين الظروف المعاشية .

لكننا اذا اختصرنا القول لنربط بين الثورة الصناعية وتوغل الاستعمار في بقية اجزاء العالم ندرک أهمية المشاكل التي ما تزال تواجهها اغلب بلدان العالم الثالث : اختلال في الهياكل الاقتصادية لم تستطع تشاركه الى اليوم يواكبه نمو سريع في عدد السكان . وتأكيدا لذلك تشير الاحصاءات الى ان نسبة نمو السكان في البلدان النامية بلغت بين عامي 1980 و 1981 2,02% بينما كان النمو هزليا في الاقتصاديات ولم يتجاوز 1,9% مما يشكل ضغطا على الثروة التي تتضاءل بسبب الاستغلال المفرط لخيرات الارض وينعكس بشكل سيء على الوضع الاقتصادي والاجتماعي للمساكين .

... فما هي الظروف الغذائية لجزء كبير من الانسانية وكيف سينغذى العالم الفقير في المستقبل ؟ على الرغم من أهمية الانتاج العالمي للحبوب 1200 مليون طن وتزايدده باستمرار فان المخزون الغذائي ينقص من يوم لآخر اذ في حين كان في مستوى مؤونة ثمانين يوما في وقت قريب لم يعد يكفي حاليا مؤونة عشرين يوما فقط اذ ان حاجيات العالم من المواد الغذائية تزداد سنويا بنسبة 3% في حين يزداد الانتاج الفلاحي بنسبة 2,5% لا غير وهذا الفارق يمثل حتما عددا متزايدا من الافواه الجائعة او المعرضة للجوع ومخلفات سوء التغذية ذلك ان الدول المصنعة تحتكر الثروات الطائلة وتوفر لوجدها اكثر من 3/4 ما ينتجه العالم من خيرات بينما ما تزال مساهمة الدول النامية محدودة جدا بسبب مشكلات التخلف الداخلية الناتجة غالبا عن سوء الاختيارات السياسية والاقتصادية وعلاقات التبادل غير المتكافئة .

ولاعطاء صورة حقيقية لواقع البشرية الجائعة نشير الى انه رغم محاولات الانقاذ ما يزال حوالي 800 مليون نسمة في فقر مدقع وحوالي 3/4 سكان المعمورة يعانون من سوء التغذية وحسب بعض الاحصاءات المسجلة في سنة 1972 هناك حوالي 12 مليون طفل في العالم الثالث يموتون جوعا وعلى 185 مليون مولود جديد 17 مليون فقط منهم قد يصلون من الخامسة ولزيادة التندليل لسننا في حاجة للبحث بعيدا اذ يكفي ان نذكر انه على مقربة منا وفي قارتنا السمراء وعلى طول الشريط الممتد من الغرب الى الشرق على امتداد أكثر من الف كيلومتر هناك يصمت يوميا الاف الاطفال جوعا وتزداد حركة الهجرة حدة بمر الزمن ...

ليجتمع سكان هذه المناطق المنكوبة في مغيصات تحت اشعة الشمس المحرقة ينتظرون طعاما يأتيهم من بعيد هناك حيث يأكل الناس حتى التخمة، ويزداد واقع بعض هذه الشعوب سوءا بما يتعرض له من ويلات القمع العسكري والاضطهاد السياسي على غرار واقع الشعب الارترى الذي تزامنت فيه سنوات القحط والجفاف مع حرب ضروس تدور رحاها منذ حوالي ربع قرن .

المساعدات الغذائية تخفف وطأة الجوع وتعمق الازمة .

ان مسألة المجاعة في العالم الثالث اصبحت منذ النصف الثاني للقرن العشرين حقيقة ثابتة حيث انشئت البرامج الغذائية منذ سنة 1945 كحل للنقص الغذائي في هذا العالم الفقير رغم تنوع موارده الطبيعية لكنها وان خففت الام الجوع فانها كانت بعيدة عن حل مشاكل التنمية بل زادت في تعميق التبعية الاقتصادية نظرا لنوعية هذه المساعدات واسسها .

تتمثل المساعدات الغذائية التي يقدمها العالم المصنع لدول العالم الثالث في بعض المواد الاساسية كالحبوب والحليب المعقم والزبدة وقد بلغت كميات الحبوب المقدمة في هذا الاطار سنة 1982 1.087.963 طن وتحتل الولايات المتحدة الامريكية صدارة الدول المعنية بنسبة 60% وتليها المجموعة الأوروبية بنسبة 22% بينما تساهم اليابان واستراليا بنسبة 6% فالى متى تبقى ثلاثة ارباع (3/4) البشرية تعيش على فضلات العالم المصنع وما وجود به عليها الاغنياء ؟ ما هي الغاية من هذه المساعدات وهل حققت نتائجها المؤملة لدى الدول الفقيرة ؟

اننا حين نضرب مثلا لهذه المساعدات ندرك حقيقة الوضع فالهند بلد تملك ثروة حيوانية هامة وكذلك الشأن بالنسبة لبنغلاديش التي تملك حوالي 30 مليون رأس من الابقار ومع ذلك فهي من اهم الدول التي تتلقى المساعدات الغذائية وخاصة الحليب المعقم الذي يسهل معه تسرب الجراثيم لاجسام الاطفال . لا شك ان هذه المساعدات مهما كان احتياج الدول الفقيرة لتلقيها تساهم في خنق المنتجين المحليين وانخفاض الانتاج حيث يجبر الفلاح على ترك الارض واهمال الانشطة الهادفة الى توفير الغذاء اللازم للسكان

وبالتالي تجبر البلاد على اعطاء الفلاحة وجهة خارجية لفائدة المنتوجات التصديرية وتدخل حلقة تصدير المواد الخام بأسعار بخسة لنسئورها جاهزة او نصف جاهزة بأثمان باهضة ويصبح اقتصاد هذه البلدان خاضعا لتقلبات السوق العالمية وهشا في دعائمه الاساسية .

على هذا الاساس تصبح سياسة الاعانات التي حاول اصحابها اضفاء طابع انساني عليها عملا تجاريا بحثا يمكن الدول المصنعة من التخلص من الفائض المتراكمة لديها في بعض المواد لتحرير اسواقها الداخلية ولو ادى الامر الى القضاء على الفلاحة بالبلد المرسل اليه كما كانت بعيدة عن تذليل صعوبات التنمية بل زادت في تعميق الازمة وفرضت على دول العالم الثالث جملة من القيود اهمها الخضوع لسياسة الاستهلاك والتبعية الذليلة في مستوى التغذية ومكنت الدول الغنية من التحكم في الاختيارات السياسية والاقتصادية لهذه الدول بواسطة سلاح سياسة الجوع والخوف ، ويدرك المتعمق في كنه هذه المساعدات ظاهرة الاستغلال وانتهاز الفرص مثلما يحدث عند تعرض بعض الدول الى كوارث طبيعية من ذلك انه عندما تكون الازمة ناجمة عن هزات ارضية دمرت المساكن وخلفت الجرحى والضحايا فان البلد المتضرر يفرق بكميات ضخمة من الحبوب والمواد الغذائية فترداد الازمة حدة حيث تنخفض اسعار الحبوب نتيجة اغراق السوق ويكون مال الفلاحين المحليين الافلاس وعلى ضوء ما تقدم ذكره يتضح ان ازمة العالم الثالث بعيدة الجذور معقدة الجوانب وخطيرة الابعاد نظرا لما تمثله من عقبات امام عملية التنمية وباعتبارها ناجمة عن تفاعل معطيات داخلية متميزة بارتفاع حاد في نمو السكان وهبوط في موارد التغذية والعيش وعوامل خارجية مرتبطة بتقلبات الوضع الاقتصادي العالمي وانعكاساته المترتبة عن علاقات التبعية .

وتبعاً لذلك اختلفت مناهج الطرح حول تقديم الحلول البديلة الكفيلة بفك الحصار المضروب على العالم الثالث اذ في حين يعتبر البعض تنظيم الاسرة هو العلاج الامثل يركز اخرون على تطوير الخيرات والزيادة فيها مع مراجعة للعلاقات الدولية نحو ارساء نظام تبادل اكثر توازنا .

ومهما كان التباين في وجهات النظر فاننا نعتقد انه ينبغي العمل على الواجهتين الاقتصادية والديموقراطية باعتبارهما يمثلان الاشكاليتين الرئيسيتين لتطور العالم الثالث وفي هذا المجال أصبحت السياسة السكانية من أهم مجالات الاستراتيجية الشاملة للتنمية وضبطت العديد من الدول النامية الطرق الكفيلة بتنظيم الاسرة والبرامج الهادفة الى الحد من معدلات الخصوبة التي ما تزال مرتفعة حيث يبلغ متوسط الانجاب في القارة الافريقية بين 4,8 و 10,7 طفلا يدل المتوسط المفروض الذي ينبغي ان يكون في حدود 2,1 وفي هذا السياق احرزت عدة دول ومن ضمنها تونس تقدما ملحوظا في مجال السياسة السكانية اذ كانت العشرية المنصرمة كافية لتحقيق نتائج جد ايجابية في هذا المجال خاصة مع ما رافقها من عمل تنموي شامل قصد بناء اقتصاد متكامل ولمزيد الجدوى والفاعلية ينبغي التنسيق بين مختلف دول العالم من ساجل ضبط سياسات سكانية تتماشى وواقع البلدان والعمل على تطوير الاعلام حتى يأخذ دوره الفعال في معالجة ظاهرة الانفجار السكاني ونشر السياسات الاسكانية وبث المعلومات على نطاق اشمل كما يجب تطوير التعليم حتى تتضمن برامجه الرسمية خططا للتوعية والتثقيف .

وحتى يكون المجهود متكاملًا ونتائجه المرتقبة ايجابية ليتحتم معالجة الوضع الاقتصادي بما يحقق علاقات اقتصادية أكثر توازنًا وذلك بمراجعة انصار المواد الأولية التي يمثل اهم صادرات العالم الثالث حتى لا يتحمل أكثر مما يمكن ازمة العالم المصنع ويخف حمل الديون التي تنقل كاهل الدول الفقيرة والتي اضطرت الى اعادة جدولتها الممرار العديدة نظرا لعجزها عن التسديد في الاجال المحددة . وفي مجال اخر ينبغي ان يثبت العالم المصنع حسن نواياه فيخصص لمساعدة العالم الثالث تكنولوجيا قسطا مما يخصصه للتسلح ليتمكن من توسيع مجال البحث بفضل كفاءاته العلمية ويستطيع خلق صناعته الخاصة حسب واقعه الاقتصادي وحاجياته الذاتية مما يمكنه من تطوير البحوث الزراعية وتعصير الفلاحة وتوفير الانتاج وبالتالي تحقيق اكتفائه الذاتي وفي كلمة واحدة ينبغي العمل على تحقيق المثل الصيني « القائل » لا تعطه سمكة كل يوم بل علمه كيف يصطاد سمكا .

محمد غرس الله



وصول الى المستوى الذي يرضيك

لن ننسى وعدنا في خصوص تطوير مجلة «الاتحاد» ، التي هي منك واليك ، فلا تنسى أنه لا يمكنها أن تعيش الا بموازرتك وتعريفك بها لدى كل الاصدقاء وفي كل مكان .